

مراجعة الذات غير مستحيلة في عالمنا 'سمير قصیر متأملا في "الشقاء العربي" بالفرنسية

أنطوان جوكى

صدر للمؤرخ اللبناني والصحافي سمير قصیر كتاب جديد لدی دار "أکت سود" الفرنسية (سلسلة "سندياد") تحت عنوان "تأملات في الشقاء العربي" ، هو عبارة عن بحث ينبع في قصیر في تلخيص، بأقل من مئة صفحة، المأزق الخطير الذي يخبط فيه عالمنا العربي وسرد أسبابه، قبل أن يتلألل السبل المتاحة أمامنا للخروج منه. ولا تكمن أهمية هذا البحث فقط في قدرة قصیر المعهودة على عبور تاريخنا العربي الحديث وبراعته في استخدام معطيات هذا التاريخ السياسي والاقتصادية والثقافية لمعالجة موضوعه، وإنما في تشخيصه الجريء للحال البائسة التي وصلت إليها مجتمعاتنا العربية وفي تحديده الأسباب والمسؤوليات من دون أي مواربة أو مراعاة لحساسيات معينة. مما يمنح تأملاته، التي تبقى مقالة، وحلوله المقترنة لنهاض عالمنا من جديد صدقية وإلحادية لا يمكن تجاهلها .

ويقوم قصیر في البداية بوصف الوضع العربي وخطورته من خلال مقارنته اليوم ليس بالعالم الغربي الذي يسيقنا بأشواط عده على جميع المستويات، وإنما بمناطق كانت لا تزال البارحة مصنفة داخل العالم الثالث وها هي اليوم تسجل أفضل معدلات نمو في اقتصادها وتتفاوت الغرب على المستوى التقني، كما في معظم دول شرق آسيا، أو تدخل في مرحلة انتقالية نحو الديموقراطية لا يمكن فيها العودة إلى الوراء، كما في أميركا اللاتينية وبعض الدول الأفريقية. وأمام نتائج هذه المقارنات السلبية بالنسبة إلى مجتمعاتنا، يتملّكتنا شعور بالعجز يتغذى من حداد لم ينته على عظمة عالمنا الماضية. لكن هذا الشعور لم ينشأ فيينا منذ دخول الجيش الأميركي إلى بغداد، بل نما وكبر مع كل فصل من فصول الصراع العربي- الإسرائيلي الذي أدى بسرعة إلى هيمنة الدولة العربية على الشرق الأوسط. وما حول هذا الشعور بالعجز إلى نوع من القدر هو شعورنا بأحقية القضية الفلسطينية ووقف الشرعية الدولية إلى جانبنا وتحالف الكثير من الشعوب والدول معنا، من دون نتيجة. وينظر قصیر فقط شعبيين عربين رفضا هذا "القدر" وقرارا المقاومة: الفلسطينيون واللبنانيون .

وفي معرض وصفه لحالنا البائسة اليوم، يقوم قصیر برحلة في عالمنا العربي يتوقف فيها في كل دولة ويشير بجرأة في كل مرة إلى انعدام الديموقراطية وتحجر الأنظمة أو سلطتها على المواطنين وتحجج معظها بالخطر الصهيوني أو الغربي لإحلال حال طوارئ دائمة تفرغ الحياة السياسية من محتواها وتمكنها من إحكام قبضتها على الأحزاب والجمعيات والأفراد. كما يبين قصیر كيف أن الإسلام المناضل وإن بدا اليوم موجها ضد الغرب أولا، ليس سوى نتيجة لمأزق الدول العربية الداخلي. لكن لا يمكنه أبدا أن يكون الحل لهذا المأزق بفشل أنظمتنا في التحديث ونشر العدالة وتنشـر الحقوق الفردية وتعـيمـ الازدهار . إذ يعتبر قصیر أن الفكر الأصولي هو تراجع بكل ما في الكلمة من معنى في حال عـدـنا إلى التاريخ العربي ذاته.

وبـدـلا من العودـةـ إلى ماضـ قـديـمـ وـعـظـيمـ يـتـجـمـدـ فيـ الـعـربـ دـاخـلـ صـورـةـ غـيرـ تـارـيـخـيـةـ قـبـلـ أـنـ تـحـلـ مرـحـلـةـ "ـالـانـحـطـاطـ"ـ الـتـيـ يـرـفـضـهاـ قـصـيرـ،ـ يـذـكـرـنـاـ هـذـاـ الأـخـيـرـ بـمـدـىـ الـإنـجـازـاتـ وـالـنـجـاحـاتـ،ـ السـيـاسـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ وـالـثـقـافـيـةـ،ـ طـوـلـ تـلـكـ الـرـحـلـةـ بـالـذـاتـ وـحـتـىـ نـهـاـيـةـ السـيـنـيـنـاتـ،ـ وـكـيـفـ أـنـ صـورـةـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ كـانـتـ تـدـعـوـ إـلـىـ التـقـاـولـ،ـ يـبـدـوـ فـيـهاـ كـالـعـالـمـ مـتـحـركـ وـمـتـضـامـنـ حـيـثـاـ مـعـ الـعـالـمـ الـثـالـثـ وـأـحـيـاـنـاـ مـوـجـهـ لـهـ.ـ وـلـهـذاـ يـدـعـوـ لـيـسـ إـلـىـ رـفـضـ عـظـمـةـ الـحـضـارـةـ الـعـرـبـيـةـ مـذـ بـدـايـتـهـ وـحـتـىـ الـأـنـدـلـسـ وـإـنـماـ تـسـجـيلـهـاـ دـاخـلـ تـارـيـخـ غـيرـ مـرـصـودـ دـيـنـيـاـ أوـ مـوـجـهـ قـومـيـاـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـغـنـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ الـذـهـبـيـ بـدـلاـ مـنـ إـفـارـهـ .

ولا يتهرب قصیر من مسألة أن التحديث في عالمنا العربي كان بجزئه الأساسي تغربا، بل يؤكدها من دون عقد، مظهرا بذلك أنه لا تضارب بين الإسلام والتحديث، من خلال أمثل كثيرة مسقاة من القرن التاسع عشر، كالإصلاحات السياسية والإدارية التي سيقوم بها محمد علي في مصر ثم خير الدين في تونس والسلطات العثمانية في كامل الأمبراطورية، وفكرة الوطنية بالمعنى الذي أرسنه الثورة الفرنسية والتي ستؤدي إلى ولادة القوميات اليونانية والصربيّة والتركية والغربية، وحركة "النهاضة" التي ترتكز أساسا على فكرة التقدم والأنوار الأوروبيّة والتي يرفض قصیر حصرها بالحقل العربي، خصوصا أن عطش التحديث والتغور تجلّى أولا في اسطنبول وأدى إلى إصلاحات ملموسة أوجت في ما بعد إلى الدول العربية التي شكلت بعد تكامل الأمبراطورية، أنظمتها الدستورية والنيلية. وبين قصیر كيف أن الثقافة العربية بذاتها ست تكون خلال مرحلة "النهاضة" انطلاقا من اكتشاف الآخر، الآخر الأوروبي، وعلى أساس هذه المواجهة ستتبلور اللغة العربية الحديثة وقواعد كتابتها الجديدة .

وفي السياق ذاته، يشير قصير إلى أن الحادثة العربية لا تقتصر على بضعة عقود خلال القرن التاسع عشر، بل تستمر الروح النهضوية 'فضل الغليان الأدبي الذي ستشهد المراحل المتعددة بين الحربين العالميتين والنشاط المتنوع على مستوى النشر الذي يترجم ولع الكتاب والشعراء في اكتشاف سبل جديدة تغنى اللغة العربية وتجدد بنيتها. وبموازاتهم، يذكر قصير أيضا انتماء جميع المفكرين الذين شاركوا في صوغ الأيديولوجيات القومية آنذاك إلى المدرسة الأوروبية. وأكثر من أي وقت مضى، يعتبر قصير أن هذا التحدي كان تغرياً. وحتى لدى نشوء دولة إسرائيل على أنفاس فلسطين، لم ينقطع العرب عن التواصل مع الفكر الغربي مفضليين طبعاً جناحه 'الاشتراكى'. وحتى هزيمة العرب عام 1967 لن تنصع حداً للغليان الثقافي بل ستشرع تبنيهم للفكر الرافض الذي كان طاغياً آنذاك في العالم. وينظر قصير هنا بأن الفكر العلماني هو الذي كان يحدد الحياة الثقافية، واستمر هذا الأمر حتى نهاية السبعينيات، أو حتى انطفاء ببروت بعد الحصار الإسرائيلي عام 1982، تاريخ 'النهضة'.

يقترحه البعض كخاتمة لمعاصرة 'النهضة'

ولفهم تطور العالم العربي لا بد من عدم إهمال جغرافيته. إذ يعتبر قصير أن موقع منطقتنا في قلب العالم القديم وفي وجه أوروبا كان العامل الأكثر تأثيراً في عملية تطورنا. ولا حاجة بنا اليوم إلى إعادة سرد التاريخ الطويل بين ضفتى المتوسط منذ فتح الأندلس ونتائجها التي يصعب إحصاؤها على مختلف المستويات. لكن النقطة المهمة التي يشير إليها قصير في هذا الفصل هي أن العالم العربي ليس بالتأكيد المنطقة الوحيدة التي تأخرت في تطورها لانشغالها بمسألة تحررها، وهي أولوية لا يمكن مناقشتها، ولكن من بين جميع المناطق المستعمرة، العرب هم الوحيدين طوال القرن العشرين الذين فرضت عليهم باستمرار استراتيجيات القوى العظمى بسبب موقعهم الجغرافي. وسيضاف إلى هذا المعطى الجغرافي معطى آخر جيولوجي يتمثل في اكتشاف الاتصال وأهميته.

ويقول قصير في معرض ختمه لهذا البحث أن نكبة العرب الكبرى هي في رفضهم اليوم الخروج من منطق النكبة، بينما لا سبيل إلى ذلك إلا بقيامنا بهذا الجهد بذاتنا. كفكرة منظم، الأصولية الجهادية المبرزه غالباً في الإعلام الغربي لا تمثل، وفقاً لقصير، سوى أقلية في العالم العربي. وإن ملكت قدرة دفع مهمة فلأنها من دون شك التيار الوحيد الذي يمنح اليوم باب خروج من حل الضحية التي يلذ للعرب وضع نفسم فيها. لكن إلى أين؟ أكثر من نتيجة لموازين القوى، 'حل الضحية' هذه هي ثمن انكفاء الخطاب الشمولي أمام الخطاب الديني المتردم. معظم الوسائل الإعلامية العربية، وعلى رأسهم 'الجزيرة'، ضالعة في ترويج صورتنا كضحية لعلها أن الأيديولوجية الطاغية حالياً تغالي برفضها لكل ما هو شمولي.

ويذعن قصير إلى رفض نظرية هن廷تون حول هذه المسألة مذكراً إيانا بموقف المفكر الكبير كلود ليفي شتراوس: 'الحضارة ليست رتبة، ولا إمكاننا لوضع تراتبية طبيعية (بين الحضارات)'، البشرية واحدة لارتكازها على أساس انتروبولوجي مشترك. 'ضرورة مراجعة الذات يجب ألا تقتصر إذا على الغربي. فعلى المستوى العربي لا بد من جهد كبير لوضع حد للالتباس الذي يشجع منطق المواجهة الثقافية، ولذلك يجب التخلص من حل الضحية التي تعودت عليها المجتمعات العربية وقبول فكرة أن القرن العشرين، على رغم الهزائم، أعطى العرب مكتسبات مهمة يمكنهم بفضلها المشاركة في سير العالم، وعدم خلط الإرهاب بالمقاومة، بحجة أن الغرب يخلط بين المقاومة والإرهاب'.

ويعتبر قصير في النهاية أن مراجعة الذات هذه غير مستحيلة في عالمنا العربي، لكن صعوبتها تكمن في موقع النخبة القادرة على الترويج لها، بين سلطات غير ديمقراطية، وتيارات إسلامية راديكالية.

الموضوع: عام

المصدر: الحياة